الجريمة في السينما، من أفلام العصابات الى الفيلم الاسود
عندما يأخذ الحلم الأميركي شكل الكابوس
Crime in Cinema, from Gangster films to the Polar (Film Noir)
When the American Dream turns to a Nightmare

عبد الكريم موساوي
جامعة عبد الحميد بن باديس مستغانم
moussakarimaoui@yahoo.fr

تاريخ الاستلام 2024/09/20 تاريخ القبول 2024/11/19

الملخص

تعد أفلام الجريمة من أكثر الأفلام شيوعا في السينما العالمية والامريكية خاصة، وذلك لما تثيره من فضول وشغف عند المتفرج. هذه الأفلام التي بدأت في أوروبا بتمثيل الجريمة التاريخية كفيلم "اغتيال الدوق دي غيز" L'assassinat du Duc de Guise (1908)، امتدت الى العالم الجديد على شكل أفلام تمجد بطولات رعاة البقر الامريكان في مواجهة "جرائم" الهنود الحمر المتوحشين المدافعين عن ارضهم. وعندما استتب الامر سياسيا للحكومة الامريكية ضد اعداءها من الهنود والمكسيكيين، انتقلت السينما الى المدينة واغوارها لكي تولد أفلام العصابات من رحم التحولات الاقتصادية بعد انهيار البورصة عام 1929 وما ترتب عن ذلك من أزمات أدت الى نشأة عصابات المافيا. وفي المقابل، فقد شكلت افلام المحققين البوليسيين ورجال الشرطة والعدالة ردة فعل السلطة على استفحال افلام العصابات وشعبيتها من خلال افلام تمجد الحكومة ورجالاتها. اما عقدي الاربعينيات والخمسينيات فقد شهدا صعود نجم الفيلم الاسود وسيطرته على هوليوود بأفلام غاية في الروعة، تقنيا وفنيا مثل "صقر مالطا" (1941)، "تامين على الموت" (1944)، "ساعي البريد دائما يرن الجرس مرتين" (1946)، "شارع الغروب" (1950)، "التعطش للشر" (1957)...

الكلمات المفتاحية: أفلام الجريمة – الفيلم الأسود – أفلام العصابات – المحقق الخاص – الشرطة – المدينة - العدالة

Abstract:

Crime films are among the most common films in the world and in American cinema in particular, because of the curiosity and passion they arouse in the viewer. These films, which began in Europe by representing historical crimes such as L'assassinat du Duc de Guise (1908), extended to the New World in the form of films glorifying the heroism of American cowboys in the face of the "crimes" of the savage Native Americans defending their land. . When the political situation stabilized for the American government against its enemies, the Indians and Mexicans, cinema

moved to the city and its environs in order to generate gangster films from the womb of the economic transformations after the collapse of the stock market in 1929 and the resulting crises that led to the emergence of mafia gangs. On the other hand, films about police investigators, policemen, and justice constituted the authorities' response to the spread of gangster films and their popularity through films that glorified the government and its men. As for the decades of the forties and fifties, they witnessed the rise of the polar film star and his control over Hollywood with extremely wonderful films, both technically and artistically, such as "The Maltese Falcon" (1941), "Double Indemnity" (1944), "The Postman Always Rings Twice" (1946), "Sunset Boulevard" (1950), "Thirst for Evil" (1957)...
Keys Words: *Crime films – polar – Gangsters' movies – Private detective – Police – the City - Justice*

مقدّمة:

راعي البقر ورجل العصابات وجهان لعملة واحدة، الاسطورة الاميركية التي تجسدت على الشاشة الذهبية منذ بداياتها، فكاي امة كان يجب لهذه الدولة الفتية ان تطمح ان يكون لها اساطير على غرار الشعوب العظيمة منذ الفرس وبابل والرومان والفراعنة في العهود القديمة الى فرسان اوروبا البواسل في القرون الوسطى. فكان رجل الغرب بشكل عام وراعي البقر بشكل خاص هو ذلك الفارس المغوار المجسد للحلم الاميركي بتفوقه على الطبيعة الموحشة لهذا البلد الشاسع وكذا تغلبه على سكانه الاصليين، اصحاب الارض، الهنود الحمر. فكانت مغامراته في طريقه نحو الغرب الى اقصى حد، المحيط الهادي، تمر حتما عبر قتال (قتل) هؤلاء الهنود المتوحشين، تارة والجيوش المكسيكية، تارة اخرى.

ترجم كل ذلك العنف الى افلام تمجد هذا البطل الاميركي فكان هو الخير في مواجهة الشر والاشرار، فولدت افلام الغرب الاميركي Western من رحم التفاؤل، اما افلام الجريمة فتمخضت من مراحل التشاؤم التي تلت سنين ملحمة الغرب الكبرى، مرحلة بناء الكيان الاميركي واستقراره غربا، شمالا وجنوبا. ثم بدأت مرحلة البناء والتعمير مع نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين تزامنا مع ميلاد السينما عامة وسينما الجريمة خاصة.

سوف نتطرق اذا الى مغامرة افلام الجريمة في هوليوود من بداية القرن الماضي الى نهاية الخمسينيات من عدة جوانب، محاولين الاجابة عن بعض الاسئلة اهمها كيف تاثرت هذه الافلام بالواقع الامريكي وكيف اثرت فيه ؟ بالاظافة الى معرفة كيف تحولت هذه الافلام من افلام العصابات الى افلام المحقق ثم الى الافلام السوداء؟ اما المنهج المعتمد فهو بطبيعة الحال المنهج التاريخي لارتباطه بنوع الموضوع.

الجريمة في السينما الصامتة

يجب الإشارة الى ان أحد اهم الأفلام الأميركية في بداياتها "سرقة القطار الكبير"ل: ادوين. س. بورتر Edwin S. Porter عام 1903 قد جمع بين افلام الغرب و الجريمة في فيلم واحد لم يتجاوز 12

دقيقة، فكانت هذه البداية بالنسبة للنوعين. ليأتي بعدها غريفيث والذي يعتبر عراب السينما الاميركية كي يقوم بإخراج ما لا يقل عن 450 فيلم قصير، اغلبها مستوحى من جرائم حقيقية. كان ذلك بين 1908 و 1912 لصالح شركة بيوغراف Biograph. ومن بين هذه الافلام: "ساعة الحتف" « The Fatal Hour » و"من اجل حب الذهب" « For Love of Gold » (1908). "البيت الوحيد" « The Lonely Villa » (1909). "ابن الشوارع" « A Child of the Ghetto » و "زنابق البيت" « The Lily of the Tenements (1910). "ساعي بريد لونديل" Lonedale » « Telegraphist (1911). "اكتشاف رهيب" « A Terrible Discovery » (1912)... مع فيلم "فرسان بيغ الي" « The Musketeers of Pig Alley » عام 1912 يقوم غريفيث بجمع كل مقومات فيلم الجريمة من حرب العصابات، الشرطة المرتشية، استعمال الحانات كمراكز للمجرمين...(Sadoul, 1949)

ومن بين الافلام الاخرى في نفس المجال، فيلم "تجارة الارواح" « Traffic in Souls » ل: جورج لون توكر George Loan Tucker وفيلم "الإيطالي" « The Italian » من انتاج توماس اينس Thomas Ince وإخراج رجينالد باركر Reginald Barker (1915). كما انه تم انتاج فيلمين عن عالم الجريمة لمخرجين هامين في نفس السنة وهما: "تجديد" « Regeneration » ل: راوول وولش Walsh Raoul و "الصيت" « Forfaiture » ل: سيسل ب. دوميل Cecil B. DeMille.

كانت عشرينات القرن الماضي The Roaring Twenties (زئير العشرينات) مليئة بالأحداث المثيرة والتغيرات الجذرية كظهور مودة الجاز والشعر القصير للنساء، التطور التكنولوجي، السرعة، عصرنة البنايات وتنوع العروض... بالإضافة الى تطبيق سياسة حضر المشروبات الكحولية The Prohibition من طرف الدولة من جهة وتنامي وتفشي عصابات المافيا على غرار ال كابون Al Capone في شيكاغو ولوكي لوتشيانو Lucky Luciano في نيو يورك.(Amengual, 1971)

ولعل اهم ممثل لأفلام الجريمة في هذه الفترة هو لون شاني Lon Chaney الذي تألق في "الجزاء" The Penalty (1920) ل والاس وورسلي Wallace Worsley الذي يلعب فيه دور The Buzzard "الصقر" (او الشاهين) شخص قطعت ساقاه غلطة اثر عملية جراحية فيقوم بتأسيس عصابة في سان فرانسيسكو لينتقم من المجتمع وبالأخص من العمال الذين يصورهم الفيلم على هيئة شيوعيين يجب محاربتهم. كان ذلك عقب الثورة البلشفية التي طالما شكلت تهديدا على الولايات المتحدة الأميركية. يواصل لون شاني على نفس المنوال تقريبا في فيلم "خارج القانون" Outside the Law (1921) ثم "نادي الثلاثة" The Club of the Three (1925) و "الطائر الأسود" The Black Bird (1926)، الثلاثة من اخراج طود براونينغ Tod Browning. لتنتهي سلسلة افلام شاني بفيلم "في المدينة النائمة" (1928) لجاك كونواي Jack Conway، اين يتقمص "صاحب الالف وجه" شخصية المحقق بدلا من دور المجرم المعتاد. (العمري، 2021)

لكن يبقى أحسن فيلم يحاكي الجريمة في هذه الاثناء، فيلم "ليالي شيكاغو" (1927) من اخراج جوزيف فون شترنبيرغ Josef von Sternberg عن سيناريو بن هيشت Ben Hecht الذي حقق نجاحا منقطع النظير ويتوج بأول جائزة اوسكار لأحسن قصة اصلية في التاريخ. يصور الفيلم حياة بول ويد

Bull Weed (من أداء جورج بانكروفت George Bancroft)، زعيم عصابة يحظى باحترام الجميع حتى الشرطة. يدخل السجن بسبب مقتل أحد منافسيه لتقع عشيقته في حب محاميه مما يدفعه للهرب ومحاولة الانتقام، الا انه في نهاية المطاف يسامحهما ويسلم نفسه للشرطة.

الثلاثينات، عصر العصابات

لقد غير ظهور الصوت في السينما كل شيء وقلبه رأسا على عقب، شكلا ومضمونا فكأنما هو ميلاد جديد للفن السابع. لكن تأثير الصوت على افلام الجريمة كان اقوى بكثير بحيث اضفى عليها أكثر حيوية وواقعية. من صوت العجلات على الاسفلت وصافرات سيارات الشرطة الى الانفجارات وطلقات البنادق والرشاش ورنين الهاتف مرورا بموسيقى الجاز في الحانات والمراقص. هذا ولقد كانت شركة وارنر (الاخوة وارنر) Warner Brothers رائدة في انتاج هذه النوعية من الأفلام عن طريق رئيس الإنتاج بهذه الشركة داريل ف. زانوك Darryl F. Zanuck الذي كلف المخرج مرفين ليروي Mervyn LeRoy بإخراج "القيصر الصغير" Little Caesar عام 1931 والمستوحى من السيرة الذاتية ل ال كابون، بطولة ادوارد ج. روبنسن Edward G. Robinson.(Baudou, 2OO1)

كما شهد نفس العام 1931 انتاج حوالي 50 فيلم عن العصابات. اما الفيلمين الشهيرين اللذان أنتجا بعد "القيصر الصغير" فهما "العدو الشعبي" Public Enemy ل وليام ويلمان William Wellman من انتاج وارنر بروسWarner Bros وفيلم "صاحب ندبة الوجه" Scarface ل هوارد هاوكس Howard Hawks وإنتاج الملياردير والمنتج المستقل هوارد هيوز Howard Hughes لصالح شركة الفنانين المتحدين United Artists.

البطل في الأفلام الثلاثة شخص كاثوليكي (مع العلم ان غالبية الأمريكان بروتستانت) ففي "القيصر الصغير" ريكو Rico (الغني بالإيطالية) من أصول إيطالية وكذلك طوني كامونتي Tony Camonte في Scarface مع العلم ان بطلا الفيلمين يهوديين، ادوارد ج. روبنسن/ريكو واسمه الحقيقي غولدنبيرغ Goldenberg، مولود في رومانيا اما بول موني/طوني كامونتي Paul Muni بطل "سكارفيس" فهو من يهود النمسا واسمه الحقيقي فايزنفرويند Weisenfreund. بالنسبة للفيلم الثالث "العدو الشعبي" فكل من البطل والممثل أيرلنديين، جيمس كاغني James Cagney في دور توم باورز Tom Powers. كما ان نجاح هذه الافلام دفع بالشركات الاخرى لان تدلو بدلوها في انتاج افلام من نفس الشاكلة، فانتجت الفوكس Fox (قبل ان تتحول الى Twentieth Century Fox) فيلم Quick Millions بطولة سبنسر تريسي Spencer Tracy (اول من تحصل على جائزتي اوسكار لأحسن ممثل لعامين متتاليين 1937و1938 قبل ان يعيد توم هانكس Tom Hanksالكرة عامي 1994و1995). اما الباراماونت Paramount Pictures (الشركة التي أنقذها فيلم العراب The Godfather من الإفلاس عام 1972) فأنتجت فيلم "ملتقى طرق المدينة" بطولة غاري كوبر Gary Cooper.

لقد أدى نجاح أفلام العصابات الى تحول شخصية المجرم قائد العصابة الى بطل في نظر الاميركيين مما دفع الى قلق رئيس مكتب التحقيقات الفيدرالي F.B.I ج. ادغار هوفر Edgar Hoover .لشخصيا من هذه الظاهرة. بالإضافة الى قرار ويل هايز Will Hays رئيس الجمعية الأميركية لمنتجي وموزعي

الأفلام (M.P.P.D.A) لاعتماد ما سمي بقانون هايز للرقابة على الأفلام وذلك سنة 1934. كما ان قرار الدولة بإلغاء قانون حضر المشروبات الكحولية The Prohibition (الذي جعل من البلاد أكبر سوق سوداء للكحول في العالم) في ديسمبر 1933 في إطار سياسة النيو ديل The New Deal للرئيس الجديد فرنكلين د. روزفلت، تسبب في اختفاء افلام العصابات تماما مع منتصف الثلاثينات ليتحول اغلب ابطال هذه الافلام من ادوار المجرمين الى ادوار رجالات الحكومة G. Men (Government Men) الذين أصبحوا يلاحقون المجرمين دون هوادة.(Esquenazi, 2021)

في فيلم "الخارجون عن القانون" G. Men ل وليام كيلي William Keighley يمثل جيمس كاغني دور محامي فقير لكن نزيه يلتحق بال F.B.I لينتقم لمقتل صديقه على يد أحد العصابات. في فيلم "حرب على الجريمة" لنفس المخرج (1936) يتحول ادوارد ج. روبنسن الى شرطي مغروس وسط احد العصابات على انه من افرادها ليواجه رئيسها هامفري بوغارت Humphrey Bogart. اما في "انتصار الشباب" ل سيسل ب. دوميل Cecil B. DeMille (1933) يصور لنا المخرج مجموعة من الطلاب الشباب الذين يقومون بالهجوم على العصابات في ضل فشل الشرطة في القضاء عليهم. وفي سياق اخر، يصور لنا مرفين ليروي Mervyn LeRoy

البطل بول موني Paul Muni على انه متهم مظلوم زج به في السجن في "انا هارب" (1932). يهرب هذا البطل تحت اسم مستعار ليحاول العمل بشرف لكنه سرعان ما يعاود السقوط في المحظور والعودة الى سابق عهده الاجرامي.

فريتز لانغ Fritz Lang من بين عمالقة السينما الذين فروا من تفشي النازية في المانيا (هو من أصل نمساوي مثل بيلي وايلدر Billy Wilder) بداية الثلاثينات ومن بين أفلامه حول الجريمة "غضب" (1936) بطولة سبنسر تريسي Spencer Tracy في دور شخص بريء متهم بجريمة قتل، يحاول جموع الناس الهجوم على السجن لقتله لكنه يهرب. يظنه الجميع ميت بينما يتابع هو متخفيا جلسات محاكمة المتهمين بقتله ولا يتدخل الا في الاخير كشاهد بعد تأنيب ضميره وشعوره بالذنب. اما في فيلمه التالي "لذي الحق في العيش" (1937) بطولة هنري فوندا Henry Fonda، يحكي لانغ المصير المأساوي لشخص ذهب ضحية خطا قضائي يهرب من السجن لتقتله الشرطة.

تتغير نظرة مخرجي افلام الجريمة والعصابات لتسلط الضوء على الآفات الاجتماعية وتقاعس الدولة في مساعدة الشباب وابعادهم عن عالم الجريمة ومن بين هذه الافلام: "طريق مسدود" ل وليام وايلر William Wyler (1937) و "ملائكة بوجوه متسخة" (1938) لمايكل كورتيز Michael Curtiz (مخرج كازابلانكا Casablanca) اين يطلب رجل دين (قس) من زعيم العصابة جيمس كاغني ان يتوب ليكفر عن خطاياه ويكون قدوة للشباب قبل ان يموت على الكرسي الكهربائي. تنتهي فترة الثلاثينات بأفول نجم رجال العصابات في الواقع، فال كابون يقبع في السجن منذ 1931 محكوم عليه بأحد عشر سنة (بتهمة التهرب الضريبي) وجون ديلنجر John Dillinger وبيبي فيس نيلسن Baby Face Nelson قتلا عام 1934 (الاول من طرف عصابة اخرى اثر خروجه من قاعة سينما في شيكاغو والثاني قتل على يد مكتب ال F.B.I). ادى كل هذا الى تغيير شكل تنظيم هذه العصابات في حد ذاتها والتي قررت الاجتماع في اتلنتيك سيتي Atlantic City عام 1934 لتأسيس اتحاد مجرمي اميركا قاطبة للسيطرة

على القمار، الدعارة، الابتزاز وتجارة المخدرات على شكل مؤسسات مجهولة او ما يسمى ب Murder Incorporated او Murder Inc. نقابة المجرمين ان صح التعبير.(Guérif, 1999)

اما في السينما فقد انعكس هذا التحول من خلال أفلام مثل: "سنوات العشرينات الرائعة" (1939) لراوول وولش Raoul Walsh الذي يقص بشكل من الرثاء عشرون عاما من حياة أحد قائد العصابات جيمس كاغني من خنادق الحرب العالمية الاولى الى سنوات الحظر "Prohibition" ثم تقهقره كسائق سيارة اجرة الى موته في الثلج. وكذلك فيلم "الهروب الكبير" (1941) لنفس المخرج عن سيناريو لجون هيوستن John Huston عن كتاب و. ر بورنت W. R Burnett (مؤلف كتاب "القيصر الصغير"). عشر سنوات بعد "القيصر الصغير" يتحول ريكو Rico الى روي ايرل Roy Earle رئيس عصابة مسن يفشل في اخر سطو مسلح على بنك فيهرب باتجاه الغابة لكي يموت بعيدا عن ضوضاء المدينة، عن الشرطة و السجن الذي قضى على شبابه. هامفري بوغارت البطل روي الذي اعتاد على ادوار القوي المخيف يتحول الى شخص مثير للشفقة في اخر ايامه.

ينتهي عصر العصابات لتلج هوليوود عصرا اخر مليء بالمغامرات والمخاطر، عصر المحقق والفيلم الاسود، أحد أشهر انواع الافلام في الاربعينات.

الفيلم الاسود، البدايات

يعد فيلم "صقر مالطا" The Maltese Falcon لجون هيوستن الفيلم المؤسس لفيلم المحقق بشكل خاص والفيلم الأسود بشكل عام تماما كما يعتبر "القيصر الصغير" مؤسس لأفلام العصابات منذ عشر سنوات. تبدأ المغامرة اذا بهذا الفيلم المقتبس عن رواية داشييل هاميت Dashiell Hammett البوليسية التي تحمل نفس العنوان "صقر مالطا"، اول افلام هيوستن، بطولة هامفري بوغارت في دور سام سبيد Sam Spade المحقق، ماري استور Mary Astor، سيدني غرينستريت Sydney Greenstreet، بيتر لورPeter Lorre و اليشا كوك ج.ر Elisha Cook Jr.

تعود تسمية الفيلم الاسود في الاصل الى الفرنسيين نسبة الى السلسلة السوداء Série Noire في الادب البوليسي الذي كان شائعا خصوصا عقب الحرب العالمية الثانية فبالرغم ان هذا النوع من الادب الذي يعتبره البعض هامشي او نوع من Paralittérature يرجع الى أواسط القرن التاسع عشر مع روايات غوبينو Gobineau وادغار الان بو Edgar Allan Poe. ثم ارثر كونان دويل Arthur Conan Doyle ومحققه شارلوك هولمز في نهاية القرن. الى اغاثا كريستي Agatha Christie وبطلها هيركول بوارو Hercule Poirot. لكن "السوداوية" ظهرت مع كتب داشييل هاميت Dashiell Hammett، رايموند شاندلر Raymond Chandler، وليام ايريش William Irish، جيمس كاين James Cain...

تتواصل الاربعينات بسلسلة من الافلام السوداء الجيدة على غرار: -فيلم "تامين على الموت" Double Indemnity (1944) ل بيلي وايلدر Billy Wilder عن رواية جيمس كاين، بطولة فريد ماكموراي Fred MacMurray، باربارا ستانويك Barbara Stanwyck وادوارد ج. روبنسن. روبنسن الذي تألق في فيلمين لفريتز لانغ –"صاحبة اللوحة" (1944) و –"الشارع الأحمر" (1945)، الاثنان مع

جون بينت Joan Bennett. هنالك أيضا فيلم –"رواية ميلدرد بيرس" Mildred Pierce (1945) عن رواية جيمس كاين ومن اخراج مايكل كورتيز. -"النوم الكبير" The Big Sleep لهوارد هاوكس (1946) بطولة بوغارت في دور أشهر محقق خاص في تاريخ اميركا فيليب مارلو Philip Marlowe من وحي خيال رايموند شاندلر. واحد اروع الافلام السوداء في تلك الفترة –"ساعي البريد دائما يرن الجرس مرتين" (1946) من تأليف جيمس كاين كذلك واخراج تاي غارنت Tay Garnett، بطولة جون غارفيلد John Garfield ولانا تورنر Lana Turner في دور عشيقين يقومان بالتخلص من الزوج المخدوع. بالإضافة الى ثلة من الأفلام السوداء الجيدة مثل "منزل الشارع رقم92" ل هنري هاثاواي Henry Hathaway (1945) الذي تشبه أفلامه في هذه الفترة الأفلام الواقعية وذلك من فرط واقعيتها. في فيلمه "اتصلوا بنورثسايد 777" (1948) المستوحى من احداث حقيقية والذي يصور حياة محقق صحفي في شيكاغو في ضل تنامي العنصرية في هذه المدينة الخطيرة.(Cléder, 2012)

في العام 1947 تم انتاج فيلمين مهمين ايضا: الاول "بومرانغ" Boomerang من اخراج ايليا كازان Elia Kazan بطولة ارثر كينيدي Arthur Kennedy وكارل مالدن Karl Malden، قصة شخص يتهم ظلما من طرف سلطات مرتشية. الفيلم الثاني "فرقة الانتحار" اخراج انطوني مان Anthony Mann عن قصة أحد موظفي الخزينة العمومية الاميركية. ومن بين أبرز الافلام السوداء في هذا الوقت ايضا: "لورا" Laura ل اوتو بريمنغر Otto Preminger (1944). "الوداع جمياتي" (1944) لادوارد دميتريكEdward Dmytryk اين يلعب ديك بويل Dick Powell دور المحقق فيليب مارلو. "زهرة الداليا الزرقاء" The Blue Dahlia (1946) لجورج مارشال George Marshall. فيلم "من الماضي" Out of the Past (1947) لجاك تورنور Jacques Tourneur بطولة روبرت ميتشوم Robert Mitchum. وكذا فيلم "نيران متقاطعة" Crossfire لادوارد دميتريك بطولة ميتشوم أيضا. فيلم "الفريسة" (1948) لروبرت سيودماك Robert Siodmak...

مع نهاية العشرية يظهر نوع اخر من الأفلام السوداء وهو أفلام السطو المسلح Hold up والذي يدين بالكثير لجون هيوستن الذي أبدع عام 1950 بفيلمه "عندما تنام المدينة" The Asphalt Jungle (او "ادغال الاسفلت") عن كتاب و. ر بورنت W. R Burnett. يعتمد هذا النوع من الأفلام عادة على سيناريو محكم وحبكة مضبوطة جيدا، فالمتفرج ينسجم مع مجموعة من الشخصيات المتفاوتة الذكاء والمختلفة التجارب، تخطط لسطو مسلح. عادة، يكون في الوسط رجل محنك صاحب شخصية قوية يقود العملية من الالف الى الياء. لكن في غالب الاحيان، يفشل السطو لسبب او لآخر. من بين هذه الافلام: "الهجوم الاخير" (1956) من أوائل افلام ستانلي كوبريك Stanley Kubrick، "مناوشة عند الرجال" (1955) ل جول داسان Jules Dassin الذي اخرجه في فرنسا. فيلم "خطة الدرج" (1959) ل روبرت وايز Robert Wise (من الافلام القلائل التي يظهر فيها أحد الابطال من السود كالممثل والمغني هاري بيلافونت Harry Belafonte). وفيلم "اللصوص السبع" (1960) لهنري هاثاواي.

اما النوع الاخر الذي كان شائعا بين الافلام السوداء فهي افلام السجون، اين يتحول الهدف الاكبر الى الهروب من السجن بشتى الطرق الممكنة. هذا ما يميز افلام مثل: "شياطين الحرية" (1947) لجول داسان. فيلم "ثوار الزنزانة 11" (1954) ل دون سيغل Don Siegel. فيلم "المجرمون" (1960) لجوزيف

لوزي Joseph Losey المنتج في بريطانيا (اول أفلام لوزي السوداء كان فيلم "الحوام" سنة 1951 في الولايات المتحدة الامريكية).(Bernard, 2011)

تنتهي عشرية الخمسينات بتحفتين سينمائيتين انتجتا في عام واحد، 1957. أولها فيلم "الابتزاز الكبير" ل ألكسندر ما كندريك Alexander MacKendrick بطولة بورت لنكاستر Burt Lancaster وطوني كورتيس Tony Curtis حول خفايا عالم الصحافة ودهاليزها. اما الثاني فهو "التعطش للشر" Touch of Evil ل اورسن ويلز Orson Welles. فيلم شيكسبيري بامتياز بطولة شارلستن هيستن Charlton Heston (النبي موسى في "الوصايا العشر") والنجمة جانت لي Janet Leigh (التي تألقت بعدها في "سايكو" Psycho لهيتشكوك سنة 1960). وكذلك اورسن ويلز نفسه في دور شرطي مرتشي وشرير. الكثير من النقاد يعتبر هذا الفيلم اخر أفلام العصر الذهبي للفيلم الأسود. (العمري، 2021)

تجليات الفيلم الأسود

من بين التقنيات الأساسية المميزة الفيلم الأسود وبالأخص بعد فيلم "تامين على الموت" (1944)، تقنية الاسترجاع وتقنية الراوي الغائب «off» ويرجع الفضل في استعمالها وشيوعها الى فيلم "المواطن كاين" Citizen Kane (1941) لاورسن ويلز بمساعدة السيناريست هيرمان مانكيفيتش Herman Mankiewicz اللذان تحديا السرد الزمني الكلاسيكي المعمول به في السينما منذ أربعة عقود. حيث يبدا الفيلم من النهاية بموت رجل الاعمال وعملاق الاعلام آنذاك، شارلز فوستر كاين واسترجاع سيرته الذاتية من خلال سرد خمس شخصيات ممن عايشوا وعاشروا الفقيد.

وكما أسلفنا، يعتبر فيلم "تامين على الموت" Double Indemnity لبيلي وايلدر رائدا في مجال الفيلم الاسود، شكلا ومضمونا حيث اعتمد تقنية الشخص الذي يسترجع حياته او جزء من حياة شخص اخر. فيبدأ الفيلم باعترافات والتر نف Walter Neff (فريد ماكموراي) المصاب الذي يحتضر. في فيلم "شارع الغروب" Sunset Boulvard (1950) يجعل بيلي وايلدر من المسترجع رجل ميت، جو غيليس Joe Gillis (الذي يلعب دوره وليام هولدن William Holden) يحكي قصته بينما تنتشل الشرطة جثته من حوض السباحة. يسرد غيليس حكاية لقائه ب نورما ديزموند Norma Desmond (من أداء غلوريا سوانسن Gloria Swanson) بطلة أفلام صامتة مشهورة ينتهي بها المطاف بقتل غيليس اثناء نوبة جنون.(Billioud, 2012)

نفس التقنية، رجل يستحضر حادثة مأساوية يعرف نهايتها، تتكرر في عدة افلام من بينها "ساعي البريد دائما يرن الجرس مرتين" (1946) واسترجاع البطل فرانك تشامبرز Frank Chambers (بطولة جون غارفيلد John Garfield). فيلم "على هامش التحقيق" ل جون كروميل John Cromwell (1947)، بطولة هامفري بوغارت في دور ريب مردوك Rip Murdoch. فيلم "في المشرحة" (1949) ل رودولف ماتي Rudolph Maté، بطولة ايدموند اوبراين Edmond O'Brien في دور فرانك بيجلو Frank Bigelow. اما في فيلم "لورا" Laura (1944)، يعكس اوتو بريمنغر Otto Preminger الصورة حيث يكون المسترجع شخص على قيد الحياة. في هذا الفيلم المقتبس عن رواية ل فيرا كاسبيري

Vera Caspery، يتذكر والدو لايديكر Waldo Lydecker (كليفتن ويب Clifton Webb) فتاة ميتة، او يعتقد موتها، لورا (جين تيرني Gene Tierney) التي أحبها لحد الجنون.

بالنسبة للاسترجاع فكلما كثر في الفيلم كلما زاد التعقيد وأفضل مثال على ذلك فيلم "القتلة" The Killers (1946) لروبرت سيودماك Robert Siodmak، سيناريو كل من جون هيوستن وانثوني فايلر Anthony Veiller، اين يبلغ عدد الاسترجاع أحد عشر استرجاع، ليتمكن المحقق جيم ريردن Jim Reardon (ايدموند اوبراين Edmond O'Brien) من ان يتقصى أثر "السويدي" The Swedish (بورت لنكاستر Burt Lancaster)، ملاكم سابق تحول الى مجرم يحاول بعض رجال العصابات تصفيته. اما في فيلم "من الماضي" Out of the Past (1947) لجاك تورنور Jacques Tourneur الذي سبق ذكره، سيناريو دانيال مينوارينغ Daniel Mainwaring عن رواية ل جوفري هومز Geoffrey Homes. يتنقل المحقق السابق جيف بايلي Jeff Bailey (روبرت ميتشوم) ليلا عبر المكان وعبر الزمان في سيارته ليلتقي بأحد رجال العصابات (كيرك دوغلاس Kirk Douglas) الذي سبق وان تعامل معه عندما كان في الخدمة، ثم يصادف المرأة التي تكون سببا في مشاكله (جين غرير Jane Greer). لينتهي الفيلم بوفاة ثلاثتهم.

لكن فيما يخص تقنية صوت السارد البطل عبر La voix off فيرجع الفضل فيها لاورسن ويلز الذي استخدمها في "سيدة شانغهاي" The Lady from Shanghai (1947) باعتباره رجل مذياع بامتياز (مذيع) وسبق له ان استعملها في "المواطن كين" (1941). اذ لا يجب ان ننسى ان للمذياع دور محوري وحيوي في ميلاد الصوت في السينما وتطوره، خصوصا في سينما الفيلم الاسود. هذا من الناحية الفنية، اما من الناحية التقنية فلعل اهمها على الاطلاق، تقنية "الكاميرا الذاتية" Subjective camera أي من منظور البطل نفسه، بحيث تكون نقطة نظره هي عين الكاميرا وتتجلى هذه التقنية في فيلم "الطريق المظلم" Dark Passage (1947) ل ديلمر ديفز Delmer Daves من خلال منظور البطل فينسنت باري Vincent Parry (هامفري بوغارت). وكذلك في فيلم "سيدة البحيرة" Lady in the Lake (1947) اخراج وتمثيل روبرت مونتجومري Robert Montgomery.(Esquenazi, 2021)

هنالك أيضا تقنية الظل والضوء في الإضاءة التي تزيد من حدة التوتر الدرامي من جهة، وتؤثر كذلك في الملامح الفيزيولوجية للشخصيات ومن اهم تقنيات التصوير والاضاءة هذه: 1-الضوء الرئيسي Keylight، المثبت فوق الكاميرا بحياز الممثل، يضيء المكان ويشكل ضلال متباينة. 2-ملء الضوء Fill light، موضوع بجانب الكاميرا والذي يضيء بشكل غير مباشر ولطيف نوعا ما الضلال المترتبة عن الاضاءة الرئيسية. 3-الاضاءة الخلفية Backlight، التي تبين جيدا الممثلين بالنسبة للمشهد الخلفي. في الفيلم الأسود يفضل الكثير من مديري التصوير التقليل من تقنية ملء الضوء والاعتماد على صورة ضعيفة التعرض لتكثيف التباينات بإغراق الغرف والأماكن الطبيعية في الظلام. يقوم هذا الضوء الخالص بإضفاء صبغة جمالية خصوصا على وجوه النجمات ويعطيهن نوعا من الجمال الرهيب. هذا ويفضل جل مخرجي الفيلم الأسود التصوير بالليل لما له من مزايا لهذا النوع من الافلام، حيث تكون السماء قاتمة والتباين أكثر حدة على ما يسمى ب"الليل الاميركي" American

Night وهو تصوير مناظر ليلية في وضح النهار باستعمال مصفى يوضع على الكاميرا والتقليل من الضوء المتسلل لها.

هنالك مشكلة أخرى تواجه مديري التصوير في الأفلام السوداء والتي تكمن في المحاولة على الحصول على عمق ميدان أكبر يؤدي الى تباين المشهد المتصدر مع المشهد الخلفي في ضل اضاءة خافتة لقراءة مثالية للمشهد من طرف المتفرج وهذا ما نجح فيه اورسن ويلز بداية ب "المواطن كاين". وذلك بفضل عبقرية مدير تصويره غريغ تولاند Gregg Toland الذي ضل يرفض اقحام المزيد من الضوء في الكاميرا لكيلا يؤثر ذلك سلبيا على الظلام المنشود في جل الافلام السوداء والذي يعد من ابجدياتها. لكن ضريبة ذلك كانت استعمال بؤرة ضوء قصيرة تكشف معدات التصوير والآلات المعلقة في الاستوديو مما ادى الى بناء أسقف مموهة. هذه البؤر القصيرة ساهمت ايضا في إظهار وجوه الممثلين وكأنها تخرج من الشاشة مشكلة بذلك واقعية أكثر للعنف والتهديد والقلق كعلامة مسجلة لهذا النوع من الافلام.(Guérif, 1999)

عالم الفيلم الأسود

ان خصوصية الفيلم الأسود دفعت بمخرجيه الى تبني تقنيات خاصة كما أسلفنا وفنيات أيضا متميزة تتماشى مع العالم الأسود لهذه الأفلام حيث تتمدد الزوايا وتغوص الكاميرا لتضغط على الشخصيات بشكل يزيد من حدة التوتر النفسي بالإضافة الى استعمال الإطارات (الكادرات) الضيقة والمقلقة في نفس الوقت. هذه السوداوية الفنية الضاربة بجذورها في المدرسة التعبيرية الألمانية والتي دفعت بروادها الى مغادرة المانيا النازية متوجهين صوب هوليوود (فريتز لانغ، مورناو Murnau، بابست Pabst، وايلدر، بريمنغر...) كامتداد لهذه المدرسة داخل عالم السينما السوداء.

اما التأثير الاخر فهو الواقعية الشعرية للسينما الفرنسية خلال نهاية الثلاثينيات (رونوار Renoir، كارني Carné، دوفيفيي Duvivier...). اما التأثير الداخلي، أي من اميركا نفسها، في نضج الفيلم الاسود وهيمنته فلاشك ان الفضل فيه يرجع الى اورسن ويلز وروبرت الدريشRobert Aldrich اللذان اعطيا لهذه السينما نفسا جديدا في الخمسينيات من خلال كل من فيلم "قبلني بحرارة" Kiss Me Deadly(1955) لروبرت الدريش وفيلم "التعطش للشر"Touch of Evil (1957) ل اورسن ويلز. هذا من جهة اما من جهة أخرى مغايرة تماما، فنجد أفلام كل من: فريتز لانغ "خلف شك حقيقي" Beyond a Reasonable Doubt (1956). اوتو بريمنغر "تشريح جريمة قتل" Anatomy of a Murder (1959) اللذان تميزا كأغلب افلامهما بالتحليل العقلاني للعالم الحالي. (العمري، 2021)

اما فيما يخص مديري التصوير فكان اغلبهم اميركيين لسببين رئيسيين: الاول ان التقنية التصويرية في هوليوود كانت الافضل حيث يعمل مدير التصوير بموجب عقد احتكار لمدة سبع سنوات مع شركة الانتاج. اما السبب الثاني فيتعلق بنظام النقابات التي تفرض الاستعانة بمدير تصوير اميركي فضلا عن الطاقم التقني برمته لإعطاء الاولوية للعمال الأمريكان.(Delmas, 2010)

المدينة، معقل الفيلم الاسود

مع نهاية القرن التاسع عشر واستكمال ترسيم الحدود، شمالا، جنوبا وغربا، اصبحت المدينة هي الوسط الذي ينشط فيه بطل الافلام السوداء في رحلة بحثه عن المال، السلطة والمتعة الحسية. فكل

مغامراته المصيرية سواء رومنسية او مهنية تدور في فلك المدينة الحديثة من ناطحات السحاب الى الملاهي وصالات القمار الى حلبات الملاكمة المليئة بالعنف والدموية. فلطالما شكلت هذه الحلبات ديكور او جزء من ديكور العديد من الافلام مثل فيلم "القتلة"
The Killers (1946) لروبرت سيودماك، الذي سلف ذكره. فيلم "الاثبات" The Set up (1949) لروبرت وايز Robert Wise بطولة روبرت راين Robert Ryan وفيلم "البطل" The Champ (1949) من احراج مارك روبسن Mark Robson بطولة كيرك دوغلاس. شكل كل من: جمهور الملاكمة المتعطش للعنف، الرهانات المالية على الملاكمين وصعود نجم ثم انهيار الملاكم البطل، اهم عناصر هذه الافلام المنتجة ما بين 1946 و1949.(Baudou, 2001)

هذا وبالرغم من بعد الريف والطبيعة الهادئة عن ضوضاء المدينة وعالمها العنيف الا انها سرعان ما شكلت الملاذ الوحيد للبطل الهارب من هذه المدينة ملاحقا من طرف المجرمين او الشرطة وبالتالي انتقلت العدوى الى الحقول والسهول الساكنة لتصبح امتدادا لمسرح الجريمة. ففي بداية فيلم "القتلة" يتم القضاء على "السويدي" (بورت لنكاستر) في برنتوود Brentwood اين كان متخفيا. اما في "من الماضي" فيختبئ "جيف بايلي" (روبرت ميتشوم) في بريدجبورت Bridgeport بين جبال كاليفورنيا قبل ان يصل اليه القاتل. وفي بعض الأحيان يشكل الريف ملاذ الزوجين او العشيقين معا، الهاربين من المدينة واخطارها كما في فيلم "عاشقان في الليل" They Live by Night (1948) لنيكولاس راي Nicholas Ray وفيلم "شيطان الأسلحة" Gun Crazy (1950) لجوزيف لويس Joseph Lewis . (Duncan, 2008)

المرأة في الفيلم الأسود

تماما مثل المدينة، تعد المرأة أحد اهم اعمدة الفيلم الاسود، سواء كانت ربة بيت، زوجة وفية او عشيقة للمجرم، الضحية او رجل الشرطة. هذا في أحسن الاحوال اما في أسوئها فنجدها الجميلة الفاتنة التي تستدرج البطل للوقوع في المحظور وبالتالي تطبق عليه قبضتها وتستغله لتنفيذ أهدافها. ومن الافلام المشهورة من هذا القبيل: "جيلدا" Gilda، "لورا" Laura، "ميلدرد بيرس" Mildred Pierce، "سيدة شانغهاي" The Lady from Shanghai، "فيكي" Vicki، سيدة اليحيرة" The Lady in the Lake، "الوجه الملائكي" Angle Face، "الوداع جميلتي" Murder my Sweet، "سيدة النافذة" The Woman in the Window.

بائعة هوى، مغنية ملاهي، عشيقة مدللة او زوجة متمردة، المرأة في الفيلم الاسود تمثل في نفس الوقت ماضي البطل، حاضره ومستقبله الذي هو لامحالة ملاقيه. فهي حلمه وكابوسه فوجهها الملائكي يخفي شيطانة تتقن الكذب ببراعة لتوقع هذا البطل المغمور والمغروم في شباكها. كما ان الافلام السوداء مليئة بالبورتريهات والمرايا فيتوه المتفرج بين الواقع والظاهر، بين الحقيقة والسراب. ويجدر الاشارة هنا الى سبب تاريخي ساهم في تفاقم دور المرأة في الفيلم الاسود وهو تقلدها مناصب المسؤولية في المجتمع الامريكي على وجه الخصوص، وذلك لانشغال الرجل بالحرب واغوارها، فاستطاعت تحقيق نوع من الاستقلالية والسلطة الاقتصادية جعلت منها شريك فعال في

الحياة الاجتماعية في اربعينيات وخمسينيات القرن الماضي وذلك ما نلمسه من خلال افلام الجريمة بشكل عام والفيلم الاسود بشكل خاص.

خاتمة

ينتهي العصر الذهبي لأفلام الجريمة بأفول نجم الفيلم الاسود نهاية الخمسينيات وسطوع نجم مخرج عبقري غير كل معايير هذا النوع من الافلام بالتركيز على عنصر الاثارة والتمويه واللعب بأعصاب المتفرج بما أصبح يعرف بالسوسبانسSuspense . انه الفرد هيتشكوك Alfred Hitchcock. هذا وقد ساهم شيوع استعمال الالوان في افلام الجريمة الذي تأخر الى فترة الستينيات وبالأخص بداية من منتصفها، الى ظهور نوع جديد من افلام الجريمة يساير مشاغل ومتغيرات ذلك العصر من تاريخ الولايات المتحدة الامريكية.(Kaganski, 1997)

المراجع باللغة الاجنبية

1. *Amengual, B. (1971). Clefs pour le cinéma. Paris: Seghers.*
2. *Baudou, J. e.-J. (2OO1). Le Polar. Paris: Larousse.*
3. *Bernard, J.-J. (2011). Petit éloge du cinéma d'aujourd'hui. Paris: Gallimard.*
4. *Billioud, J.-M. (2012). Le Dico du cinéma. Paris: La Martinière.*
5. *Cléder, J. (2012). Entre littérature et cinéma, les affinités électives. Paris: Armand Colin.*
6. *Delmas, L. e. (2010). Cinéma, les 100 premières fois. Paris: Grund.*
7. *Duncan, P. (2008). Stanley Kubrick, filmographie complète. Cologne: Taschen.*
8. *Esquenazi, J.-P. (2021). Le Film Noir. Paris: CNRS Editions.*
9. *Guérif, F. (1999). Le Film noir américain. Paris: Denoel.*
10. *Kaganski, S. (1997). Alfred Hitchcock. Paris: Hazan.*
11. *Sadoul, G. (1949). Histoire du cinéma mondial. Paris: Flammarion.*

المراجع باللغة العربية

1. امير العمري. (2021). *عصر نادي السينما*. القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب.